مجلة المنهل ـ المجلد: 07، العدد: 01 (2021م) ـ ص ص 265 – 276
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

أنظار في كتاب " الأجوبة الصغرى لأبي السعود عبد القادر بن علي الفاسي"

Notes in "The Small Answers of Abu Al-Saud Abdul Qadir Bin Ali Al-Fassi"

د. حميد بن احماد أيت الحيان المراكشي*
وزارة التربية الوطنية – أكاديمية مراكش- (المغرب)
Fayd13@hotmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2020/12/18	2021/03/28	2021/06/30

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص :

تتغيا هذه الورقة العلمية الكشف عن نماذج من أخطاء المحققين وتصحيفاتهم، وعن بعض الهنات التي تعترض المشتغلين على تحقيق النصوص التراثية، وأبرزها ما تعلق بالمنهج العلمي المتبع في التحقيق.

وليس يخفى ما يمكن أن يترتب عن هذا النقص المنهجي، والاضطراب العملي من إساءة وتغيير وتحريف، ولعل عملنا في هذه الدراسة أضرب عن الفرش النظري، واهتم بالجانب التطبيقي، من خلال عمل أكاديمي نال به صاحبه درجة الدكتوراه.

ومن خلال تتبعي للنص المحقق وقفت على مجموعة من الملاحظات، وسمتها بأنظار في كتاب الأجوبة الصغرى لأبي السعود عبد القادر الفاسي، رجوت أن تسهم في التنبيه إلى خطورة عملية التحقيق، وضرورة امتلاك المهارات والقدرات والكفايات قبل خوض غمار هذه التجربة.

الكلمات المفتاحية: تحقيق النصوص؛ الأجوبة؛ النوازل؛ التحريف؛ التصحيف.

Abstract :

This scientific paper aims to uncover examples of the errors of the investigators and their corrections, and some of the insults that challenge the practitioners to achieve the traditional texts, most notably related to the scientific method used in the investigation.

It is no secret that this systematic deficiency, and the practical turmoil of abuse, change and distortion, may result in the consequences of this study, which is a striking feature of the theoretical brushes, and has taken care of the practical aspect, through the academic work of

* المؤلف المراسل.

which has received a doctorate.

By following the investigative text, I stood on a set of observations, and i named them with a look in the book of the small answers of Abu Al-Saud Abdul Qadir al-Fassi, i hope to contribute to the alert to the seriousness of the investigation process.

Keywords:

investigators; answers; traditional texts.

1 مقدمة:

الحمد لله واهب النعم، ومعلم الإنسان العلم بالقلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأكرم، وعلى آل بيته الطاهرين وصحبه والسائرين على سنته ومنهجه الأقوم.

وبعد، فإن من بين ما أبدع فيه علماء المغرب فن النوازل والفتاوى والأجوبة، ولهم في ذلك مؤلفات عظيمة وشهيرة، تؤكد تهمم الفقيه المغربي بأمور الدين وأحوال الناس ومعاشهم، وترصد حركية المجتمع وتناقش القضايا التي شغلت الخاصة والعامة، وتتيح للباحث النبيه معلومات دفينة يقتنصها من بين ثنايا السؤالات والمناقشات الفقهية والأجوبة.

ويعتبر كتاب الأجوبة الصغرى من أهم هذه الكتب لاعتبارات كثيرة، أهمها السياق الزماني لهذه الأجوبة، وصدورها عن محقق كبير وعلم فذ من أعلام المغرب، ولهذه الأسباب وغيرها، نجد الكتاب قد حظي بمكانة متميزة عند كثير من الفقهاء والنوازليين الذين جاؤوا بعده، إذ حرصوا على النقل عنه واعتمدوه في تآليفهم.

وليس يستريب البحثة في ذلك، فإن الشيخ عبد القادر الفاسي رحمه الله من علماء القرن الحادي عشر الذين قيل فيهم: "لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب" (الكتاني، 1982م، صفحة 767/2)، وقد اجتمع فيه رحمه الله ما تفرق في أقرانه من العلم والتقوى والورع، "عالم فاس وإمامها ومسندها وبركتها المتوفى بها سنة 1091هـ بعد أن انتهت إليه رياسة العلم في هذه الديار، فلا قاض ولا محكم ولا مفت ولا راو إلا وهو ينسب إليه، قدمه لذلك سنه وعلمه وجاهه الموروث" (الكتاني، 1982م، صفحة 763/2).

والكتاب الذي بين أيدينا "الأجوبة الصغرى لسيدي عبد القادر الفاسي"، طبع ونشر لأول مرة على يد محمد محمود ولد محمد الأمين سنة 2003م بموريتانيا.

ومن الموافقات أن تتزامن هذه النشرة مع مناقشة أطروحة للدكتوراه في العلوم الشرعية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة وجدة –المغرب–، بعنوان "الأجوبة الصغرى لأبي السعود عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي دراسة وتحقيق" للطالب علي بن أحمد الإبراهيمي، نال بها درجة الدكتوراه بميزة مشرف جدا، قبل أن تتكفل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بطبعه سنة 2007م.

وبعد قراءتي للكتاب بطبعتيه، طبعة محمد محمود ولد الأمين، وطبعة الدكتور علي بن أحمد الإبراهيمي، اتضح أن الكتاب في طبعته الأولى –طبعة موريتانيا– ليس سوى إخراج تقني للنص الأصلي، ولا يلتفت إلى ما وضع على غلاف الكتاب من عبارة "المحقق والناشر"، إذ لا يظهر في الكتاب أي أثر للتحقيق سوى نقل النص وإعادة طبعه والغالب على الظن أنه نقله من طبعة حجرية.

أما الدراسة الثانية للكتاب بتحقيق الدكتور علي بن أحمد الإبراهيمي فقد عنت لي حولها مجموعة من الملحوظات، وظهرت بعض التعقبات العلمية، انصبت في مجملها على النص المحقق وبعض الهوامش العلمية التي حشا بها المحقق بحثه، والتي من شأنها أن تفسد هذا العمل القيم ما لم تتداركها يد التصويب والتصحيح بالنقد العلمي الهادف، ولم ترعها بالنصيحة المعرفية الكافية الشافية، والمناقشة الهادئة الهادفة، وهي موضوع هذه المباحثة العلمية.

ولعل ما حملته تضاعيف الكتاب من أسماء للكتب والأعلام بعضها مصرح به والآخر مضمر، وأسماء الأماكن والبقاع، وأنواع من المصطلحات الفقهية والألفاظ المحلية، من لباس وأطعمة وأوانٍ وغيرها، تجعل مهمة المحقق عسيرة غير ميسرة. مما يوجب غض النظر عن مجموعة من الهنات، والتماس العذر للمحقق فيها، إذ يمكن إلحاقها بالأخطاء المطبعية المعفو عنها، ويعذر صاحبها لاستحالة الكمال، ولحوق النقص بالأعمال.

غير أني أزعم أن المحقق وقع في بعض الأخطاء المنهجية التي لا يسع السكوت عنها، وفي الإبانة لها، والإلماع إليها، سدا لثغرات علمية جليلة، وتقويما لعمل مضني قام به المحقق، ابتغى منه إخراج النص المحقق في أقرب صورة لما وضعه الشيخ الإمام.

ولعل أهم هذه الملحوظات ما يلي:

2 - إغفال التعريف والترجمة لواضع الأسئلة الشيخ الفقيه عبد العزيز بن الحسن الزياتي وما استتبعه من إشكالات:

ذكر صاحب الأجوبة الصغرى الشيخ عبد القادر بن علي الفاسي سبب التأليف عند مقدمة كتابه يقول: "وبعد، أكرمنا الله وإياك بتقواه، ووفقنا وإياك لما يحبه ويرضاه، فإنه قد اتصل بنا من قبلكم مكتوب يشتمل على نوازل زعمتم أنه التبس عليكم حكمها، ومسائل استبهم عليكم فهمها، خصصتموني فيها بالخطاب، وعينتموني لرد الجواب، وكلفتموني أن أكتب لكم ما يكون كفيلا بالبيان، وعليه المعول في ذلك الشأن" (الفاسي، الأجوبة الصغرى، 2007م، الصفحات 174-175).

ويتضح من خلال هذه الديباجة أن الكتاب المبحوث هو مجموع أجوبة عن أسئلة وجهها الفقيه عبد العزيز الزياتي لابن خاله وشيخه عبد القادر الفاسي، بلغت في مجموعها أربعا وستين مسألة تتنوع بين العبادات والمعاملات والتصوف والنحو وغيره، وأنها وردته على سبيل المكاتبة أي التراسل والذي لا يكون إلا من بعيد.

بينما أشار محقق الكتاب "أن عبد العزيز الزياتي كان **يأتي بنصوص الأسئلة المطروحة عليه قصد إحالتها على شيخه** على حالها، ولو أنها في الغالب محررة من طرف عوام، أو أشباه العوام، ولا تسمح له الأمانة العلمية بالتصرف فيها، أو تقديمها أو تأخيرها، وتنحرف أحيانا عبارات السائلين عن الأسلوب الفصيح، لاسيما عندما **يتحدثون عن العادات والأعراف المحلية**" (الفاسي، الأجوبة الصغرى، 2007م، صفحة 64).

ويبقى السؤال المطروح هل كان المحقق على وعي تام بالسياق الذي تندرج تحته هذه الأجوبة، وهل أدرك تمام الإدراك ما سطره الشيخ في مقدمة كتابه، وإن كنا لا نستطيع القطع في هذه المسألة إذ أن ألفاظ المحقق تحتمل التأويل وتفتح الباب أمام مجموعة من الاستشكالات والتي كان على المحقق أن يوضحها ويحسم فيها بلغة قاطعة، فالمؤلف يصرح بتوصله بمكتوب السائل وهو يشرع في الإجابة عنها جملة كما وردت عليه جملة، بينما يدعي المحقق بأن الفقيه-السائل- يأتي بنصوص الأسئلة التي عرضت له قصد إحالتها على شيخه، وهذا لا يتأتى إلا بالملاقاة والمشاهدة والحضور بين يدي الشيخ...ولعل المحقق يدرك أن الفقيه السائل له وظيفة يلتزم بها من إمامة وتعليم بمسجد القصبة مما

يتعذر معه الحضور اليومي بين يدي الشيخ، غير أنه يتحين الفرص لإحالة هذه الأسئلة وعرضها عليه، لكن السؤال المطروح، هل كان يعرضها جملة واحدة، أم أن الأسئلة كانت ترد على الشيخ تباعا؟

أما الاستشكال الثاني الذي كان على المحقق أن ينتبه إليه ويحسم فيه، هو كيف أمكن أن توجه الأسئلة للفقيه عبد العزيز –التلميذ–، ولا توجه مباشرة إلى الشيخ على ما هو عليه من الشهرة والإمامة، وزاويته مشرعة أمام الزوار وسط بلدة فاس، إلا أن تكون صادرة من مكان بعيد.

كما كان من الضروري التحقق من مكان ورود هذه السؤالات، ومن جهة صدورها، لأن ذلك يتيح للمحقق تجلية العديد من القضايا التي فاتته، وهو يدقق في ثنايا الكتاب كما سنبين لاحقا، ولعل إغفال هذا الإجراء المنهجي هو مرد هذه الهفوات العلمية المتعلقة بعدم عنايته بشخص الفقيه السائل، وعدم الالتفات إليه بما يستحق من بحث ودراسة وتنقيب، واستعاضته عن ذلك ببيان القرابة بين الشيخ المجيب والفقيه جامع السؤالات فقط.

3ـ الخطأ في تحقيق مكان ورود الأسئلة:

جاء في المسألة الخامسة والأربعين من الكتاب: هذا المسجد الذي أنا فيه ملازم، عادتي أنني إذا وقفت فيه للصلاة، أنحرف لجهة لأنني اختبرته وحدي ومع غيري، فوجدناه منحرفا لجهة اليمين، وهي ناحية المغرب، وكان على ذلك الاختبار، أني أنحرف أكثر مما أفعل، لأنني توسطت في انحرافي من الجهة التي نصب إليها، والجهة التي قامت لنا عليها الأدلة، والمسجد مسجد القصبة" (الفاسي، الأجوبة الصغرى، 2007م، صفحة 322)، فنص المسألة يبين أن الفقيه عبد العزيز الزياتي يتحدث عن المسجد الذي يلازم فيه–يشارط–، وهو مسجد منحرف القبلة، والذي يدعى مسجد القصبة، أما المحقق فأضاف في الهامش بصيغة القطع واليقين أن المقصود هو "مسجد قصبة النوار، التي توجد بباب المحروق، بجوار باب الشريعة، بنى هذا المسجد محمد الناصر الموحدي، عام 600هـ، وكان بها كرسي من الكراسي العلمية، التي كانت تابعة لمسجد القرويين، ويعد هذا الكرسي من الكراسي القديمة" (الفاسي، الأجوبة الصغرى، 2007م، صفحة 322)، وأحال على كتاب جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي.

وعليه فإن ما اطمأن إليه المحقق هو أن الفقيه ملازم بمسجد قصبة النوار غير بعيد عن زاوية الشيخ عبد القادر الفاسي، الذين انقطع للتعليم والتدريس بفاس حتى وافته المنية بعد خروجه من القصر الكبير، وأن ما ذكره الشيخ من وصول مكتوب الفقيه وسؤالاته لم يستفزه للبحث والتساؤل، وقطع جازما بأن المراد بالمسجد مسجد قصبة النوار بفاس.

ولو أن المحقق توقف عند ما يجود به نص الفتوى قليلا لأدرك خطورة ما ذهب إليه، فالفقيه عبد العزيز يسترسل في الكلام، فيقول عن المسجد والقصبة: "والمسجد مسجد القصبة، ومنشئوه معلوم حالهم، ليسوا بأئمة يقتدى بهم، وإنما كانوا أصحاب مخزن، حسبما هو معلوم من تاريخ إنشاء هذا البلد عند الناس، على أن مساجد البلد كلها في المدينة ورباطاتها لم تتفق على جهة واحدة، بل بينهما تباين وتخالف في ذلك، وليست البلاد موضع الأئمة والعلماء" (الفاسي، الأجوبة الصغرى، 2007م، صفحة 322).

ولعل هذا النص يحوي الكثير من المعلومات الخطيرة والإفادات القيمة التي أغفلها المحقق وأعرض عنها مما أوقعه في ارتباك معرفي، وجعل القارئ يقع في خلط شديد، وأفقد نص المؤلف أمانته ومصداقيته، إذ كيف يسوغ للقارئ أن ينعت مساجد فاس وزواياها بعدم الاتفاق على جهة واحدة، وانحراف محاريبها عن القبلة، بل لو سلمنا بذلك، فهل من المعقول أن توصف فاس بلاد العلم والمعرفة بأنها ليست موضع الأئمة والعلماء، وكيف يقره الشيخ على ذلك، إلا أن يكون الفقيه الزياتي يقصد بلدا غير فاس، أو لم توح له لفظة الرباطات بدل الزوايا بشيء من هذا القبيل، وما هو هذا المسجد الذي بناه المخزن؟.

إن الخطأ المنهجي الذي وقع فيه المحقق سيلاحقه في ثنايا الكتاب وتضاعيفه، إذ كان الأولى والأحرى به أن يقدم ترجمة وافية لواضع الأسئلة الشيخ الفقيه العالم سيدي عبد العزيز الزياتي بدل الاكتفاء بذكر صلة القرابة بين الشيخ والفقيه، وإذ ذاك ستفتح له الكثير من مغالق الكتاب.

وعلى الرغم من أن المصادر التي ترجمت للزياتي أغفلت الكثير من المعلومات وسكتت عن جوانب كثيرة من حياته، غير أنها كانت كثيرة ومتنوعة ليس يصعب على الباحث الاطلاع عليها، ومنها: كتاب صفوة من انتشر، وطبقات الحضيكي، واليواقيت الثمينة، ونشر المثاني، والإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام، وغيرها من المصادر، بينما استعنت للترجمة له بكتاب عمدة الراوين للرهوني.

وتجمع هذه المصادر على أن الفقيه عبد العزيز بن أبي الحسن بن أبي الطيب الزياتي، من عائلة كان لها باع كبير في العلم، خصوصا من جهة أمه، يقول الرهوني: "الذي له علقة وارتباط كبير ببني الجد الفهريين، لكونه ابن أختهم ...وكان رحمه الله أستاذا مجودا مقرئا عالما محصلا نبيلا، وله كتاب في النوازل والأحكام –يقصد به كتاب الجواهر المختارة مما وقفت عليه من نوازل اغمارة– ...ووجدت بخط بعضهم أنه كان إماما بجامع القصبة من تطوان" (الفاسي، الأجوبة الضغرى، 2007م، صفحة 78/4).

ونص الرهوني يحمل من المعلومات الشيء الكثير مما افتقده المحقق وهو يعالج قضايا الكتاب، فجامع القصبة المذكور ليس سوى جامع مدينة تطوان –مدينة في شمال المغرب– بعدما هدمت وأعيد بناؤها على يد السيد المنظري القائد –المخزن– كما أشار إلى ذلك الزياتي في نص المسألة، يقول الرهوني: "جامع القصبة وهو العتيق هنا، لأنه من بناء المنظري، ولا يعلم جامع بني قبله في هذا البناء الأخير الواقع عام 888هـ، أما ما قبله فقد انهدم الجميع، ولم يبق مسجد ولا جامع، وهو جامع صغير" (الفاسي، الأجوبة الضغرى، 2007م، صفحة 209).

ولعل المحقق لو اهتدى إلى وضع ترجمة وافية للزياتي لتوصل إلى مؤلفه الذي جمع فيه نوازل البلاد التي عاش فيها، والتي ذكرها في سؤالاته للشيخ وذكر بعض عاداتهم وأعرافهم، ووسمهم بالبربر.

وأعجب كيف أن المحقق لم يتوقف عند مجموعة من المؤشرات التي ذكرت في "الأجوبة الصغرى"، وأشار هو نفسه إلى أن أصل العديد من الكلمات مرتبط بمنطقة الشمال والريف، كمصطلح الدرار ونوع من اليقطين يجفف ويستعمل فيه الماء، والصامت، وغيرها.

يقول عند شرح معنى الدرار، مصطلح مشهور في الشمال الغربي والريف ص:231، ويقول في موضع آخر: ويشتهر هذا النوع من القرع في المنطقة الشمالية من المملكة ص: 210، والصامت هو الماء الذي يعصر من العنب قبل نضجه، ويشتهر هذا النوع في منطقة الشمال ص: 209. (الفاسي، الأجوبة الصغرى، 2007م، صفحة 232)

4- كلمات صحفها المحقق أو غيرها:

التزمت في هذه المباحثة أن أضرب صفحا عن العديد من الأخطاء والأغلاط التي يمكن للقارئ أن يجد لها وجها من الصحة، أو يكون مصدرها السهو أو ما يعتري الباحث من قلة تركيز

وانتباه، وسأتوقف عند نموذجين من الأخطاء التي أدت إلى تغيير اللفظ أو المعنى أو هما معا مما لا يحق للمحقق أن يقع فيه.

النوع الأول:

جاء في المسألة الحادية والعشرين: هل يلزم الدراز –هكذا مصحفة– أن يجوز بصره على ألواح الصبيان؟ فيتأمل ما فيها من خطأ وصواب أو لا؟ (الفاسي، الأجوبة الضغرى، 2007م، صفحة 231)، وعرفه المحقق بأنه يراد به الفقيه أو المعلم الذي ينظر في ألواح الصبيان ويصلح ما فيها من خطإ في الرسم المتعارف عليه. ولم يحل المحقق إلى مراجعه وهذا ديدنه في مواقف كثيرة من الكتاب.

ولعل القارئ يلتمس للمحقق العذر فربما يكون خطأ مطبعيا صرفا للتقارب ما بين الحرفين، غير أن المؤلف يعود بعد ست صفحات فقط من الكتاب ليعيد نفس الخطأ، فعرف الحذق بأنه ذلك العمل الذي يقوم به الدراز –هكذا– الفقيه الذي ينظر في ألواح التلاميذ.

وبالرجوع إلى طبعة موريتانيا نجد الناشر أثبتها بالراء بدل الزاي، وهو الأصح، والدراز عندهم كما وضح الرهوني في كتابه عمدة الراوين: "الدراز الطراز وصاحبه دراز كحسان وحرفته تدرازت" (الفاسي، الأجوبة الضغرى، 2007م، صفحة 149/2).

النوع الثاني:

جاء في المسألة الثالثة والعشرين: ما معنى قوله في النصيحة الكافية أيضا، ومنها أكل النقانق؟ ...أثبت المحقق في متن النص ما يلي: "وقال ابن الحسا القطامي: صنف من الطعام يسمى بالمغرب المشهدة. وأورد في الهامش قوله: ابن الحسا القطامي لم أقف على ترجمته ولا كتبه. وفي العبارة جملة من الأخطاء مردها في اعتقادي قصور المحقق في التدقيق والبحث، فلو كلف المحقق نفسه عناء البحث عن هذا الطعام المذكور، وهو كما جاء في كتاب الأجوبة الصغرى ص244: عجين خفيف يعمل أقراصا ويطبخ على المقلاة، وقد يخلط بعجينها أهل المشرق سكرا ولوزا وفستقا.

ويذكر ابن مريم التلمساني في كتابه البستان ما يشير إلى هذا الطعام المعروف عندهم، ويصنع من سميد وعسل ويقدم للضيوف (التلمساني، 1908م، صفحة 162).

إن ما أثبته المحقق كما يلي: "وقال ابن الحسا القطامي: صنف من الطعام يسمى بالمغرب المشهدة" مجرد تصحيف وتصرف مخل بالنص الأصلي، والصواب: وقال ابن الحشا: القطائف صنف من الطعام يسمى بالمغرب المشهدة".

وهذا يناسب المقام والسياق، فالقطائف طعام يسوى من الدقيق المرق بالماء شبهت بخمل القطائف التي تفترش والواحدة: قطيفة (الهروي، 2001م، صفحة 26/9).

أما ابن الحشا أو ابن الحشاء فطبيب تونسي من أعلام القرن 13هـ، ألف معجما في الطب اسمه مفيد العلوم ومبيد الهموم وهو في الألفاظ الطبية من الأعضاء والأوصاف والآلات والأدوية التي وردت في كتاب المنصوري لأبي بكر الرازي (محفوظ، 1994م، صفحة 143/2). فصحف الكلمة الأولى والثانية وألحقهما ببعض، وظن أنه علم من الأعلام فراح يطيل البحث من غير جدوى، ليؤكد عدم العثور على هذا الكاتب ولم يقف على كتاباته.

5ـ هوامش يلزم أن تحذف:

من بين المسائل التي وجهها الزياتي لشيخه عبد القادر الفاسي أسئلة متعلقة ببعض الأعراف والتقاليد التي عمت بها البلوى في البلاد البربرية، سواء ما تعلق منها بالأعراس والحفلات، أو التعاطي للخمر ومباشرتها مع رقة الديانة.

وإذا كان هذا الأمر لا يقتصر على البرابر دون غيرهم من أهل البلاد، أو يكون خاصا بهم دون غيرهم، فإن كتب النوازل والفتاوى دأبت على تتبع وتقصي هذه المستجدات، والإشارة إلى ما يحدث من المنكرات التي فشت في المجتمع.

غير أن المحقق وفي سياق التعريف بالبرابر لم يجد مصدرا من المصادر العلمية في الباب سوى معجم البلدان لياقوت الحموي 626هـ، فجاء تعريفه كما يلي في كلام حذفت أغلبه زعما أنه لا يناسب المقام ولا يقبله المقال من شنيع الوصف وسيء القول، واجتزأت منه ما يلي: " والبربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشا وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم

لنمق الجهالة، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط، ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة، وقد حسّن لهم الشيطان الغوايات وزيّن لهم الضلالات حتى صارت طبائعهم إلى الباطل مائلة وغرائزهم في ضد الحق جائلة، فكم من ادعى فيهم النّبوّة فقبلوا، وكم زاعم فيهم أنه المهدي الموعود به فأجابوا داعيه ولمذهبه انتحلوا، وكم ادّعى فيهم مذاهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرّمة واستباحوا الفروج بغير حق ونهبوا الأموال واستباحوا الرجال، لا بشجاعة فيهم معروفة ولكن بكثرة العدد وتواتر المدد. وتحكى عنهم عجائب..." (الحموي، 1995م، صفحة 369/1).

لعل من نافلة القول أن الحموي يعتبر من أهم المصادر لتوثيق الأمكنة والبقاع، ناهيك عن العديد من المعطيات التاريخية والجغرافية بأدق تفصيل، وهو ما جعله معتمد الكثير من البحثة والدارسين، غير أن المحقق المدقق لا يستغني عن الكتب المعاصرة وغيرها، كما لا يكتفي بهذه الكتب التراثية وأمثالها، فالتعريف بالمدن والأمصار عند الحموي وغيره بلغة عصره تحتاج إلى كثير من البيان والشرح والتفصيل، بل ربما نجد الكثير من هذه البقاع قد تغير اسمها وتبدلت صفاتها، وربما اختفت ولم تعد إلا آثارا ورسوما.

أما ما وصف به الحموي البربر أو البرابر ومنهم سكان المغرب، فهو وصف عام، تتخلله أحكام قيمة وأوصاف قادحة، تكاد تنطق بالتوجهات والخلفيات الإيديولوجية والسياسية التي تصدر عنها، بل إن بعضها وإن كان يصدق على فترة معينة فإن إيراده من المحقق في سياق مختلف هو نوع من التعسف والبعد عن الحق والإنصاف.

أما ما تحمله الأجوبة من عادات وأعراف وخروج عن أحكام الشريعة فهذا أمر عام وليس يقصر على البربر دون غيرهم من البدو، ومرد ذلك ما يفشو عندهم من الجهل بأحكام الدين، وانحصار العلم في المدن والحواضر خصوصا أيام الفتن والقلاقل.

كما لا يخفى أن ما يحمله نص الحموي يخالف حقيقة البرابر والأمازيغ في البلاد المغاربية عامة، حيث كانت هذه البقاع مهدا لتعلم القرآن وتدارس العلوم، وأخرجت زواياها ومدارسها

علماء أفذاذا في شتى الفنون والعلوم ومن أبرزهم وأجلهم قدرا ابن آجروم، واليوسي والمختار السوسي وغيرهم.

6ـ على سبيل الختم:

إن عملية التحقيق إلى جانب كونها عملية شاقة مضنية، تبدأ باختيار النص المحقق، ثم الانتقال إلى جمع النسخ الخطية وما يرافق ذلك من صعوبات وما يعترض المشتغل من عقبات، ما تكاد تنتهي حتى يجد الباحث نفسه أمام صعوبات الكشف عن الخطوط والحروف والكلمات ومقابلة النسخ، وتحرير النص.

وإذا سلمنا بسلامة النسخ من أخطاء النساخ وتصحيفاتهم، فيلزم المحقق أن يستحضر مهاراته في الوقوف على المعلومات والسياق الزماني والمكاني للوثيقة، والتأكد من الأعلام والفرق والأسماء وغيرها.....

إن كتب النوازل بما تحويه من المعارف والمعلومات، وما تشمله من الميادين والمجالات، مع وفرة في الأعلام والأماكن وأنواع المصطلحات الفقهية والاقتصادية والاجتماعية ...تجعل مهمة المتصدي للتحقيق شاقة ومتعبة.

ولعل هذه المباحثة أرادت التنبيه إلى بعض هذه الشوارد والهنات التي غفل عنها محقق أجوبة الفاسي رحمه الله خاصة، والغرض منها إقامة هذا العمل الأكاديمي الجاد، والإشارة إلى خطورة عملية التحقيق التي تتطلب مزيد أمانة علمية، وحضور بديهة، وقوة صبر وتحمل.

ولهده الغاية نرى أن الانفتاح على المراكز البحثية والعمل الجماعي أصبح ضرورة مهمة، لما فيه من تعاضد الجهود وتآزرها، وتكامل أصحاب المعارف المختلفة، لأجل عملية تحقيق دقيقة تخرج النصوص على الوجه الذي وضع له أول مرة.

7ـ قائمة المراجع:

1. الكتاني (المتوفى: 1382هـ): فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، المحقق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية: 1982.

2. الفاسي عبد القادر(المتوفى: 1091هـ): الأجوبة الصغرى، تحقيق علي بن محمد الإبراهيمي، منشورات وزارة الأوقاف، دار أبي رقراق الرباط، الطبعة الأولى: 2007م.

3. الرهوني أبو العباس(المتوفى: 1373هـ): عمدة الراوين في أخبار تطاوين ، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، مطبعة الخليج العربي تطوان المغرب، الطبعة الأولى: 2003م.

4. التلمساني ابن مريم (المتوفى: 1014هـ): البستان في ذكر العلماء الأولياء في تلمسان، المطبعة الثعالبية الجزائر، طبعة: 1908م.

5. الهروي أبو منصور (المتوفى: 370هـ): تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى: 2001م

6. محفوظ محمد (المتوفى: 1408 هـ): تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية: 1994 م.

7. الحموي ياقوت (المتوفى: 626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1951م.